

الممارسة الصوفية قراءة في التراث و الواقع

أ. الهادي الورعادي

مقدمة:

رغبة الإنسان تجذبه باستمرار نحو إشباع تطلعاته الروحية ولعله يجد في التصوف بعض ما يرغب فيه فإذا انسلخ الإنسان عن هذه الرغبة لا شك أنه سيلحق به الفساد في نفسه و في مجتمعه أيضا، والممارسة الصوفية الإسلامية والتي تعنى بجانب كبير من هذا البعد الروحي تزخر بتراث روحي مميز يجذب الألباب و يأسر الأرواح فإذا نظر الإنسان إلى الفرق الصوفية التي تمثل التصوف قد يصاب بنوع من خيبة الأمل فيتساءل عن السر خلف هذا الفشل و هيهات أن يعثر له على جواب و لكن مع هذا فإن دراسة التراث الصوفي غنية بهذا الجانب الروحي و هو ما دفعني للتعرض لهذا الموضوع فأحاول في هذا المقام سرد الجانب النظري من هذه الممارسة الصوفية في جانبها السلوكي والتربوي ثم التعرض للممارسة الصوفية الحالية و المتمثلة في الطرق الصوفية.

وقد تطرقت في هذا البحث إلى خمسة أفكار وهي: النفس وأخلاق المجاهدة و الذكر ثم دور الشيخ في الممارسة الصوفية و أخيرا الممارسة الصوفية في الواقع المعاصر.

(1) النفس والطريق الصوفي:

إن الذي يسلك طريقه نحو التصوف لديه غاية واحدة يسعى للوصول إليها بإجماع الصوفية و هي الوصول إلى الله عز و جل و السالك في هذا الطريق لا شك أنه تعترضه عقبات عليه أن يتخطاها فإذا فشل في تخطي عقبة كان مصيره الهلاك و العودة دون الظفر بمقصده الأسمى ولكي يتخطى هذه العقبات لا بد له أن يتسلح بمجموعة من الأشياء تمكنه من خوض الطريق بسهولة و أول هذه الأشياء معرفة السالك بنفسه أو المعرفة بالنفس لذلك كان شعار المتصوفة دوما هو اعرف نفسك تعرف ربك.

إن هذا الشعار يتوافق تماما مع ذلك التعريف الذي أخذه المتصوفة للنفس وهو أنها جوهر نوراني الهي لا تباد قواها و لا تنقطع.¹

هذا التعريف يشبه إلى حد ما تعريفات الفلاسفة الذين يرون أن النفس جوهر مستقل بذاته عن الجسد و بالتالي فالأصل في النفس أنها شريفة في حقيقتها وأصل خلقتها فإذا دخلت البدن كان سجنا لها و صارت محلا للصفات الشهوانية الترابية.

إن هذا التعريف الذي يضيف على النفس صفة القداسة ليس مقبولا من الناحية الوظيفية في السلوك الصوفي لذلك جاء في تعريف النفس عند أبي حامد الغزالي بأنها المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة و الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان.²

¹ رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التصوف، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1999م، ص27

² أبو حامد الغزالي: الإحياء، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ج3، ص4

وكان من اليسير على المتصوفة إن يستندوا على حديث مشهور لديهم يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم "أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك"¹. وقد كان لهذا التعريف صدى لدى كل سالك يعرج المعراج الصوفي فيكون هدفه الأول و الأخير ليس العودة إلى النفس كما هو في التعريف الأول ولكن هدفه الوصول إلى الله أما وسيلة ذلك فهي التوجه نحو النفس بمحاربة صفاتها المذمومة و قد تأخذ هذه المحاربة أشكالاً حسب الصفات إما بإزالتها أو الوقوف عند حد الاعتدال معها، وقد جاءت هذه الممارسة تحت مسميات عديدة منها: المجاهدة و الرياضة و التزكية ومحو الصفات الذميمة و التصفية والتخلية وغيرها.

وانطلاقاً من هذا المعنى للنفس الذي أخذ به المتصوفة فقد فرقوا بين النفس و الروح، فوضعوا بالتالي الروح في مواجهة النفس في سجال دائم بينهما فتدال الروح أحياناً وتدال النفس أحياناً أخرى، والسالك هو الذي تغلب على نفسه وسيطرت عليه روحه وكلما سار في الطريق ضعفت أحوال نفسه وقويت أحوال روحه.

إن هذه الصفات المذمومة التي تدور عليها رحي الممارسة الصوفية هي ما يمكن أن نسميها الصفات الجبلية ولها أصلين الطيش والشره فالصفة الأولى ناتجة من جهلها والصفة الثانية ناتجة من حرصها، وكل هذا ناتج عن خلقها الأول الذي هو التراب و ينتج عن هذه الصفات مجموعة من الصفات الأخرى كالبخل والجهل والخداع والحسد وغيرها.²

¹ أخرجه الترمذي : كتاب الزهد الكبير ، فصل في ترك الدنيا و مخالفة النفس و الهوى ،

تحقيق : تقي الدين النووي، ط2 ، دار القلم ، الكويت ، 1983م ، ص109

² السهروردي : عوارف المعارف ، ط2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1989م ، ص453

وقد اعتنى المتصوفة بهذا الجانب من النفس لتعلقه كما قلنا من قبل بمسمى المجاهدة، والرياضة والتزكية ويتوجه السالك نحو إفناء هذه الصفات ومحوها، ويتطلب ذلك جهداً منقطع النظير ولعل هذا ما شكل فعلاً منتقداً لهم على اعتبار أن السالك يضع جهده ووقته في إفناء هذه الصفات الجبلية التي يعسر محوها بالكلية، مما يشغله عن الطريق ويقف حاجزاً يصده عن بلوغ مقصده الأسمى.¹

أما الحكم الآخر الذي قال به المتصوفة وهو الاعتدال في التعامل مع هذه الأخلاق الجبلية ولعل هذا هو الرأي الراجح لدى أهل الزهد أصحاب القرون الأولى الذين أدركوا سر الاعتدال، فالأخلاق الجبلية ليست يسيرة بل يصعب أو يستحيل محوها بالكلية، يقول في هذا السهروردي وهو من كبار المتصوفة صاحب عوارف المعارف: "فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يراعي دواعي الكونية فيه بالعلم والعدل وهو رعاية طرفي الإفراط والتفريط".²

وحتى تتبين هذه الحقيقة نأخذ جملة من الأخلاق نوضح بها ذلك، فالتواضع يكون بين الكبر الذي هو جبلة النفس و بين الذل والمهانة، والصبر يكون بين الجزع و الهلع، و الشجاعة بين التهور والجبن، والإنفاق بين البخل والإسراف.

و هكذا نلاحظ أن الأخلاق الجبلية لا يمكن محوها وإنما تستبدل بصفة مكتسبة أخرى مرغوب فيها من جهة الشرع و العقل، فإذا كان الحسد صفة للنفس مجبولة عليه فإن الإنسان لا يقضي عليه إلا بصفة مكتسبة من الشرع و هي حب

¹ ابن القيم : مدارج السالكين ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دط ، الكتاب العربي ، بيروت ،

1972م ، ج 2 ، ص 311

² السهروردي: المرجع السابق ، ص 453

لأبي طالب المكي، والرعاية للمحاسبي وهذه الكتب تتناول المقامات إجمالاً لا تفصيلاً ومن دون ترتيب، و من كتب المتأخرين نجد الرسالة للقشيري، وعوارف المعارف للسهروردي، والإحياء لأبي حامد الغزالي وكلها تقسم المقامات وترتيبها حسب رحلة السالك في المجاهدة و يشترك المتصوفة كما أشار إلى ذلك أبو حامد الغزالي في الإحياء إلى أن لكل مقام علم و حال و عمل متبعا في ذلك طريق الأوائل، أما التقسيم الآخر هو أن لكل مقام ثلاث درجات، درجة للعوام ودرجة للخواص وهم السالكون ثم درجة أخرى لخواص الخواص وهذه الرتبة للمقربين و الأولياء و يمكننا في هذا الصياغ أن نورد مقاما نوضح به المعنيين.

إن التوكل علم و حال و عمل فكونه علم إيمانك بأن الله قدير على كل شيء ثم كونه حالا بأن لا ترى فاعلا على الحقيقة إلا الله ثم عمل وهو جلب المنافع باتخاذ الأسباب.¹

والتوكل على الله أيضا على ثلاث درجات توكل مع السبب و هو توكل العوام ثم توكل مع إسقاط الطلب و غرض العين عن السبب و هو توكل الخواص ثم توكل بالخلاص من علة التوكل وهي إلتفاته إلى غير الله سواء نفسه أو غيره وهو توكل المقربين.²

ولكل مقام من هذه المقامات آداب على السالك مراعاتها ورياضات ومجاهدات تخصه إلى أن يتحقق السالك بذلك المقام، ومن الجدير أن نشير إلى أن هذا التغير من درجة إلى أخرى و من مقام إلى مقام آخر هو تغير كيني بحت أي تغير من حال إلى حال و من نشأة روحية إلى نشأة روحية أخرى لا يدرك سرها إلا شيخ عارف يتذوقها.

¹ الغزالي : المرجع السابق ، ج 4 ، ص 347

² ابن القيم : المرجع السابق ، ج 2، ص 120

لكن هل يكفي التحلي بتلك المقامات للسالك؟

هب أن السالك دخل الطريق و أعلن توبته وبدأ مجاهدة نفسه فإن الفتور و الغفلة لا شك انه لاحق به ثم إن الإنسان من طبعه النسيان و السلوك دوام حضور القلب مع الله والذي يحقق هذا الحضور للسالك هو الذكر.

(3) الذكر:

هو التخلص من الغفلة و النسيان بدوام حضور القلب مع الحق¹ إنه منشور الولاية و الحبل الواصل من أعطيه من السالكين وصل ومن حرمه انقطع، قال تعالى: (فاذكروني أذكركم) البقرة:152. وفي الحديث عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن ربه عز و جل أنه قال: "أنا مع عبدي ما ذكرني و تحركت بي شفاته".²

وقد عبر عن الذكر الشبلي و هو من الزهاد الأوائل بقوله:

ذكرتك لا أني نسييتك لمحبة و أيسر ما في الذكر ذكر لساني
و كدت بلا الوجد أموت من الهوى و هام علي القلب بالخفقان
فلما أراني الوجد انك حاضري شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت موجودا بغير تكلم و لاحظت معلوما بغير عيان³
ولم يلتزم المتصوفة بذكر مخصوص و لكنهم كانوا يرون أن الأذكار قد يفضل بعضها بعضها فمن ذلك الذكر قول * لا إله إلا الله * هذا الذي يحوي معنى توحيد الله عز و جل و نفي الندية عنه.

¹ ابن عطاء السكندري : مفتاح الفلاح ، دط ، المطبعة الميمنية ، مصر ، دت ، ج 2 ، ص 90

² أحمد : المسند ، دار الفر ، مسند أبو هريرة ، ج 2 ، ص 540

³ القشيري : المرجع السابق ، ص 123

الممارسة الصوفية قراءة في التراث و الواقع..... أ. الهادي الورعادي

رغم أهميته إلا أنهم تجاوزوه إلى الاسم المفرد و هو قول الذاكر * الله * و يرى المتصوفة أنها من اختصاص الخواص، وتجاوزوا اختصار الذكر إلى أبعد من ذلك وهو الذكر بالاسم المضمّر * هو * و هي من اختصاص خواص الخواص.¹

والانتقال من الصيغة الأولى إلى الصيغة الثانية له دليل من السنة فعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله ".²

في الصيغة جاء الاسم المفرد يتوافق مع السالك ذلك أن صيغة الله تفيد شهود التوحيد والساالك لما يشاهد الله بالذكر فلا شك أنه وحده و نزهه اضطرارا.

فالصيغة الثانية تحمل الأولى بحكم الحال و إن لم تكن بحكم المقال، أما الذكر بالاسم المضمّر فالأظهر أنه غير مطلوب عند القوم إلا عند ارتسام صورة اللفظ في القلب حتى يصير لازماً له فكأن " هو " تذكر فقط بما ارتسم على القلب الذي هو الله.

ولعل في هذا جواباً على من رفض الذكر بالاسم المضمّر * هو * بحجة أنها لا تفيد في نفسها شيء ولا تفيد أي تصور سواء كان توحيداً أو تنزيهاً.³ إن هذه الثلاثية التي هي الذاكر والذكر والمذكور سوف تشكل العلاقة بين الذاكر والمذكور فهي تثمر المعارف والأحوال ومعية لا تدركها عبارة ولا ينالها وصف ولا تدرك إلا بالذوق حتى يصير العبد مذكوراً بعد أن كان ذاكرًا قال

¹ الهادي الورعادي : موقف ابن قيم الجوزية من التصوف ، مذكرة ماجستير ، جامعة الأمير

عبد القادر ، قسنطينة ، 2005 م ، ص 64

² مسلم : الصحيح ، كتاب الإيمان ، باب ذهاب الإيمان في آخر زمان ، ج 2 ، ص 178

³ ابن تيمية : الفتاوى ، جمع : عبد تلحمن محمد النجدي ، دد ، دت ، مج 9 ، ص 226 ،

تعالى: (فاذكروني أذكركم) البقرة: 152 وجاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه: " أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم و إن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة".¹

وأفضل ما يثمره الذكر لدى السالك هو المحبة محبة العبد لله، ذلك أن من أكثر ذكره وإن تكلفا أحبه اضطرارا وهذا مصير السالك الذاكر المداوم على الذكر وفي المقابل من المحبة فإن الله يحب الذاكر حتى ليصير العبد سمع الله وبصره ويده ورجله، إن هذه المحبة ليست محبة عادية إنها محبة تستهلك العبد حتى يفنى عن نفسه فلا يشاهد سوى الحق وتعبير آخر فإن الله يأخذ عبده المحب فيسبح به في بحر صفاته ويكشف له أنوار أسمائه فيأخذه جلال وجمال الأسماء فممنهم من يرد إلى نفسه وممنهم من يبقى مستهلك يأبى الرجوع ففي الرجوع مصرعه، وهي علاقة وجدانية راقية سيمتها الروحانية والترفع عن كل ما هو ترابي وحيواني لذلك كان الذكر بحق منشور الولاية، لكن هذا الطريق المحفوف بهذه الأشواك و المخاطر و العقبات هل بإمكان السالك أن يتجاوزه بمفرده أم لا بد له من يقوده في الطريق ؟.

إن السالك في بداياته ليس إلا تلميذا يجهل الطريق أو يعلم عنه بعض الأشياء النظرية لكنه ليس خبيرا به لذلك اقتضت الممارسة الصوفية ضرورة الشيخ و حاجة المريد إليه ولئن كان الأستاذ أو المعلم يلعب دور مهما في العملية التعليمية، فإنه في الممارسة الصوفية ضرورته أشد و هو ما سنعرفه من خلال العنصر الموالي.

¹ البخاري : الصحيح ، دار الفكر ، دن ، 1982م ، كتاب التوحيد ، ج 8 ، ص 171

4) ضرورة الشيخ في الممارسة الصوفية :

الشيخ في اللغة يدور معناه حول من استنابت فيه السن و ظهر عليه الشيب وهو عادة يكون فوق الخمسين من العمر ، و في الاصطلاح الشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة و الطريقة و الحقيقة البالغ إلى حد التكميل فيها لعلمه بآفات النفوس أمراضها و أدوائها ومعرفته بواديتها و قدرته على شفائها بهداها إن استعدت و وفقت لاهتدائها¹.

إذا فالشيخ هو الذي قطع مراحل السير بنجاح حتى صار كاملا بنفسه مكملا لغيره ، إن كمال الشيخ عند الصوفية ليس كمالا علميا كما هو معروف لدينا إن الشيخ في الممارسة الصوفية لابد أن يكون عالما عاملا عارفا فعلمه هو تمكنه من علوم الشريعة و عاملا بما علم غير مفرط واقفا عند حدود الشرع، ثم عارفا و هو ما تختلف فيه الممارسة الصوفية عن غيرها فإذا كان العالم مسددا بالشرع واقفا عند حدود النص علما و عملا فان العارف صار ظاهره مسددا بالشرع و باطنه مؤيدا بأنوار المشاهدة و اليقين.

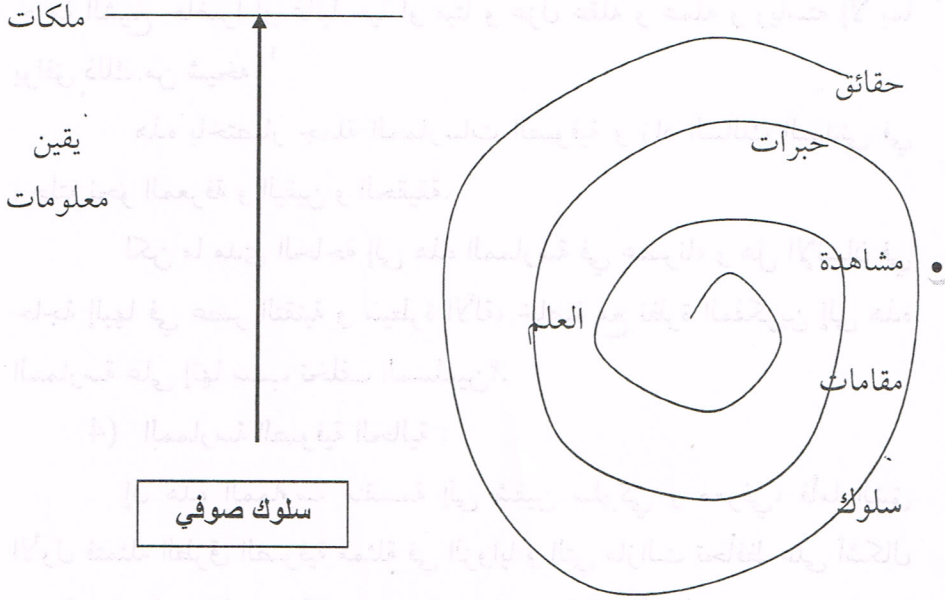
إن هذا التأيد هو الذي يعطي للشيخ مكانته في الممارسة الصوفية وهو الذي يمكنه كذلك أن يكمل غيره و يستطيع معرفة النفس و دقائقها و عيوبها وآفات فتكون له القدرة على شفائها.

إنه في هذه الحالة ليس ملزما لتعليم المريد أصول الطريقة و لكن وظيفته أساسا تكمن في تتبع آفات النفس، و قد يقول قائل كيف يمكن لشيخ عارف تكون هذه وظيفته و هي يسيرة بالمقارنة مع التعليم والتلقين الذي هو وظيفة صعبة ؟.

¹ رفيق العجم : المرجع السابق ، ص 515 ، 516

الممارسة الصوفية قراءة في التراث و الواقع..... أ. الهادي الورعادي

هيهات أن يكون ذلك فإن كان الترقى في العلم هو جمع أكبر قدر من المعلومات و المعارف و الخبرات والملكات والوصول إلى النظريات والقوانين العلمية، فإن الطريق الصوفي هو ترقى في الأحوال على مستوى الكيف .
و حتى نجلي الأمر أكثر لدينا مخططين يوضحان ذلك:
نظريات، قوانين علمية



الترقي في العلم كمي أفقي

الترقي في السلوك الصوفي كفي تصاعدي

بعد أن تصورنا ترقى المريد نستطيع أن ندرك وظيفة الشيخ بسهولة، إن أي خدش أو عيب أو آفة قد تهلك المريد و هو لا يدري بها فالطريق ذو حساسية شديدة تختلط فيه المعارف الربانية بغيرها و الخواطر والواردات الإلهية بالشيطانية، و ماهو مطلب للنفس ليس هو مطلب الملك و معرفة آفات النفوس و دقائقها كالرياء و العجب و الغرور و طلب الدنيا و كلها أحوال لا يقف عليها إلا من وصل إلى حد الكمال.

الممارسة الصوفية قراءة في التراث و الواقع.....أ. الهادي الورعادي

و بهذا يكون دور الشيخ و أهميته ، و إن كانت هذه هي وظيفة الشيخ فإنها حتى تؤتي أكلها لا بد من طاعة المريد للشيخ في كل ما يأمره به و ينهيه عنه، إذ تصبح كلمة الشيخ إلزامية و قد اتخذت هذه العلاقة بين الشيخ و المريد أبعادا أخرى فيما أرى صار يحضى الشيخ بنوع من التقديس، من ذلك أن المريد ملزم بإتباع الأمر و إن ظهر له خلافه و اجتناب النهي و إن كان فيه حتفه و حفظ حرمة الشيخ حاضرا أو غائبا حيا أو ميتا و عزل عقله و عمله و رياسته إلا بما يوافق ذلك من شيخه.¹

هذه باختصار جملة الممارسات الصوفية و زاد السالك المبدئي في رحلته نحو المعرفة و اليقين و الحقيقة.

لكن ما مدى الحاجة إلى هذه الممارسة في عصرنا، و هل الإنسان في حاجة إليها في عصر التقنية و سيطرة الآلة، خاصة مع نظرة المفكرين إلى هذه الممارسة على إنها سبب تخلف المسلمين؟.

(4) الممارسة الصوفية الحالية :

إن هذه الممارسة منقسمة إلى شقين سلوكي و معرفي، فأما الشق الأول فتمثله الطرق الصوفية ممثلة في الزوايا و التي مازالت تحافظ على أشكال من الممارسات تظهر بشكل جلي في حلقات الذكر أو الورد و علاقة الشيخ بالمريد .

فأما الذكر فإنه يؤدي في الغالب في شكل حلقات جماعية يردد فيها نوع خاص من الذكر ، و قد يكون بالصيغة التي رأيناها في عنصر الذكر و قد يكون بغيره كالذكر بأسماء الله الحسنى ، و يتم ترديد الاسم بنحو من مائة مرة أو أكثر و يترك لدى المريدين روحانية تجعل قلوبهم مرتبطة بالله عز وجل، و قد

¹ النقشبندی : جامع أصول الأولياء ، دط ، المطبعة الوهبية ، 1298هـ ، ص 17

الممارسة الصوفية قراءة في التراث و الواقع.....أ. الهادي الورعادي
يضاف إلى الذكر قراءة القرآن بشكل جماعي، و حلقات العلم، أما الذكر الفردي فإنه يكون في شكل ورد يومي يعطى للمريد ولا يخرج عن صيغ الذكر المعتاد .
أما علاقة الشيخ بالمريد و السمة الثانية للطرق الصوفية فإنها علاقة في غالب الأحوال لا تتعدى علاقة الطاعة للشيخ كونه يعتبر رمز الطريق ولا يمكن أن نلاحظ لوظيفة الشيخ الروحية غير ذلك الإشراف على حلق الذكر ومتابعة المريدين.

وكل هذه الملاحظات التي سجلتها إنما تنبئ على أن الممارسة الصوفية لا ترقى إلى الممارسة الصوفية التي رأيناها في القسم التنظيري وهي التي تنبني أساسا على سلامة المقصد وهو الوصول إلى الله عز وجل ، وحتى يتم ذلك لا بد من مجاهدة النفس و السير في المقامات واتخاذ شيخ عارف .

أما الشق الثاني من هذه الممارسة فإنه مرتبط بالشق الأول ذلك أن الثاني من ثمار الأول، وتظهر أهمية هذه الممارسة في كل عملية تأخذ على عاتقها البناء و النهضة ، يقول في هذا محمد إقبال: " ولكي نكفل إدراك الحقيقة إدراكا كاملا ينبغي أن نكمل الإدراك الحسي بادراك آخر هو ما يصفه القرآن بإدراك الفؤاد (القلب) ... والقلب نوع من علم الباطن أو البدهة " ¹.

خاتمة:

بهذه الشائبة تظهر الممارسة الصوفية بجانبها السلوكي والمعرفي ممارسة لا يمكننا الاستغناء عنها ملمحة من قريب إلى قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

وقد استطاعت الطرق الصوفية أن تستعيد في السنوات الأخيرة وزنها وتأثيرها و قد لاحظت مدى تأثر الجماهير بالدروس المحمدية و الذي أشرفت عليه الطريقة الهبرية ، والتي بثت خلال شهر رمضان- سنة 1430هـ الموافق لـ:

¹ محمد إقبال : تجديد التفكير الديني ، مركز الناقد العربي ، دمشق ، 2008م، ص48

2009م - على التلفاز، وكانت محاضرات جادة و عميقة أعادت الممارسة الصوفية إلى حقيقتها الريادية في التربية و بث الأخلاق الحميدة و الآداب النبوية والسمو بالإنسان نحو الروحانية، وهي رسالة التصوف و هدفه الأسمى الذي يسعى بالإنسان نحو الكمال الخلقي والتأله.